قراءة جديدة

لوثائق مستعربى طليطلة

للأستاذ الدكتور محمود على مكى

تمهيد : أهل الذمة فى الإسلام :

من المعـــروف أن المســـتعـــربين فى المصطلح الأندلسى هم المسيحيون الذين احتفظوا بعقيدتهم فى ظل الحكم الإسلامى للأندلس ، أى أنـهم فى نظر الشـــريعـــة الإسلامـية إحدى طـوائف «أهل الذمة» أو «أهل الكتاب» الذين عاشوا بصـفتهم أقلية دينية فى مجتـمع يحكم بشريعة الإسلام ، وذلك لأن العـرب حـينمـا حـملوا الدين الجديد إلى البلاد التى فتـحوها شرقاً وغرباً لم يعـملوا أبداً على فـرض ديانتـهم على شعوب هذه البـلاد ، وذلك تحقيقـاً للمبدأ الإسلامى « لا إكـراه فى الدين » (القرآن الكريم ، سـورة البقـرة آية ٢٥٦) . ومن هنا تركت لهم حـرية الاختيـار بين اعتناق الإسلام وحينئذ يصبحون جزءاً من المجتمع الإسلامى الجديد ، أو البـقاء على ديانتهم السـابقـة ، فـيكونون فى «ذمـة» المسلمين أوحـمايتـهم ، وتكون لهم حرية ممارسـة شعائرهم ، وتلتزم الدولة باحترام معابدهم ومـؤسســاتهم والاعـتـراف لهم بكيـان له استقلاله بتدبيـر أموره ماداموا هم بدورهم يحترمـون شريعة الدولة التى يعـيشون فى ظلها . وقد طُبِّق هذا النظام على الطائفتين اليهـودية والمسيحيـة اللتين عاشـتا فى ظل الدول الإسلامية باعتبارهما «أهل كتاب» ، بل طبق ذلك أيـضـا على المجـوس الذين آثروا الحفاظ على ديانتـهم فى شرق العالم الإسلامى . وآتت هذه السّياسـة المتسامحة من جـانب المسلمين أُكُلَها بين مـخـتلف الطـوائـف الـدينيـة فى المجـتـمـعـات الإسلامية . ولم يَحُلِ اختلاف العقائد من التعاون بين تلك الطوائف الدينية المتعددة ، ومن وصـول غـيـر المسلمـين إلى مناصب رفـيـعـة فى المجتمع الإسلامـى ، بـقدر ما سمحت به كفاءاتهم وقدراتهم المتميزة .

أهل الـذمـــة فى ظل الحكـم الإســـلامى للأندلس :

لم يكن وضع شـبـــه جـزيرة إيبـريا مخـتلفا عن وضع غـيرها من البـلاد التى فتحها المسلمـون ، فمنذ دخول العرب إلى هذا القطر فى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) وعلى الرغم من الانتـشار الـسريع للإسـلام فى أوسـاط الشـعب الإيبـيـرى الذى اصطبغ بالصبغة الرومانية والذى كان خاضعاً خلال القرون الثـلاثة الأخيـرة لحكم القوط فـقد بقيت نسـبة من هذا الشعب مـحافظة على ديانتيهـا القديمتين : المسيحيـة واليهودية . وظلت هاتان الطـائفـتـان فى تعـايش مع المسلمين ساده الوئام خلال مـعظم العصور التى كـان للدولة الإسلامـية فـيها الكـفة الراجحة .

وقد أطلق على هؤلاء المسـيحيين اسم «المستعربين» (Mozarabes) وهـو يـعنى الذين تشبـعوا بالثقـافة العربيـة واصطنعوا عادات العرب ولغتـهم وأسلوبهم فى الحياة على الرغم من عـدم انتمائهـم إلى العرب جنساً ولا إلى المسلمين ديناً . وهو وصف يمكن أن ينـسـحب أيضـا على الطائـفـة اليـهودية ، غـير أن المصطلح ظل مـرتبطاً بالمسيحية ، إذ كانوا هم الأقلية الأكثر عدداً والأبرز دوراً فى حياة المجتمع الأندلسى .

وقـد اهتم علماء عـديدون ببحث أوضـاع هؤلاء «المسـتـعربين» وحـيـاتهم فى داخل الكيـان الإسـلامى فـى الأندلس ، ولكن بعض هذه الدراسات انطـلقت من مواقف مسـبقـة غلبت عليهـا العصـبيات الديـنية والقومية بحيث انحرفت بها عن الموضوعية وروح العلم المتـجـرد من الهـوى . ولعل أوضح مـثل تتـجلى فيـه هذه النزعـة هو الكتـاب الضخـم الذى أفرده لدراسة أحوال هـذه الطـــائفـة المسـتـشـرق الإسـبـانى فـرانسسكو سـيمـونيت (عـاش بين سنتى ١٨٢٩ و١٨٩٧) الذى كـــان أســـتـــاذاً للدراسات العربية فى جامعة غرناطة ، فهو كتـاب عظيم القيمـة جليل الفائدة لولا أن صاحـبه تصور أن الأندلس طوال تاريخـهـا كـانت منقـسمـة إلى فـريقين : مـسلمين ومسيـحيين فى حرب دائمة دامـية لاهوادة فيـها . وأن المسـيحيين ظـلوا طوال قرون

عـديدة أسرى فى مـجتـمع يصب عليـهم أقصى ضروب الاضطهاد والتنكيل ويفرض عليـهم لغتـه وثقـافتـه على الرغم من أن حضارتهم كـانت أرقى وأعظم من حضارة مستعبديهم من المسلمين [1].

غيـر أن تقدم البـحث العلمى فى هذا الموضوع وفى دراسة الحضارة الأندلسية قد انتـهى بالباحـثين إلى نتائج مـضادة تماماً لذلك التصور ، وخلاصة هذه النتائج هى أنه إذا كان صحيحاً أن الشعبين الأندلسيين المسيـحى والإسلامى قد دار بينهمـا صراع طويل فإنهما قد تعـايشا أيضا خلال فترات طويلة ، وأنهـمـا تعارفـا على نحـو وثيق سمح بكثير من تبادل التـأثير والتأثر بينهما سواء حـينمـا كـانـت الكلمة العـليـا للدولة الإسـلامـية الـتى عـاش فى ظلهـا المستـعربون ، أو حـينما انقلـبت الأوضاع فـأصبـحت الغلبة للـدولة المسيـحيـة التى بسطت حكمها على المسـلمين ممن اصطلح على تسميتهم « بالمُدَجَّنين Mudéjares» ثم « بالمـوريسكـيين Moriscos» . فالحقـيقة أن المستعربين والمدجنين إنما هما وجهان لعملة واحدة .

وقد ناقش أنخل جونثـالث بالنثيا هذه القضـية فى دراسـته التى مـهد بهـا لنشر مـجمـوعة الوثائق المـستـعربيـة فقـال إن سيمونيت وأمثاله من أولئك الباحثين الذين طالما ذرفوا الدموع على المسيـحيين «شهداء الاضطهـــاد الإسـلامى» ينســون أن أهم طوائف المستعربين هم الذين كـانوا يعيشون فى طليطلة . وكانت هذه المدينة هى أولى الحواضر الكبرى وقوعاً فى أيدى المسيحيين (فى سنة ٤٧٨/ ١٠٨٥) . وعـلى الرغم من أن طليطلة ومنطقتهـا الواقعة فى وسط شـبه الجـزيرة قد أصـبـحت مركـز الدولة المسيحية قشتالة Castilla فقـد ظل سكانها المسـيحيـون يدعون أنفـسهم بـالمستعـربين واسـتمـروا يحـملون أسـماءهم الـعربيـة ويستخدمون باختيارهم وإرادتهم العربية فى معـاملاتهم ووصاياهم مماتشـهد به وثائقهم على مدى أكثـر من ثلاثة قرون من الزمان بعد أن آلت إليـهم الدولة والسلطة ، فهل

---

(1) Francisco Simonet : Los mozárabes , Madrid 1897 - 1903 .

وحول تقويم الجهد العلمى لهـذا المؤلف وبيان ما وقع فيه من تجاوزات بسبب منطقه الخـاطىء انظر كتاب چيمس مونرو : الإسلام والعرب فى البحث العلمى الإسبانى ، من القرن السادس عشر حتى الوقت الحاضر :

James T. Monroe : Islam and the Arabs in Spanish Scholarship , Leiden , 1970 , pp. 84 - 100, 200 - 201, 236 - 238.

يمكن لأحـد أن يتصـور أن المسلمين الذين ظلوا فى طليطلة أقليـة مغلوبة علـى أمرها هم الذين فرضـوا على الأكثـرية المسيحـية الغالبة لغتهم العربية ؟ النتيجة المنطقية التى وصل إليها جونثالث بالنثيا من هذه الحقيقة التـاريخيـة هى أن المسيـحيين سـواء منهم الذين عاشـوا فى ظل الدولة الإسلامـية أو الذين تمتعوا باستـقلالهم السياسى رأوا فى الحضـارة العـربية الأنـدلسية نمـوذجاً أرقى مماكـان لديهم ، فـحـرصـوا على تقليـده والاحتـذاء على مثاله . ومـا أكثر مـا نجد هذه الظاهرة تتكرر فى تـاريخ الإنسانيـة ، وهى أن الغـالب هو الذى يقلـد المغلوب ويصطنـع ثقـافـته حينمـا يـراه أسـبق منـه فى مضمار الحضارة [٢] .

المستـعـربون فى طلـيطلة حـتى عـصـر الطوائف :

كان هؤلاء المسـتعربون يؤلفـون طائفة كبيرة العـدد إلى حد ما فى المناطق الجنوبية من شـبه الجـزيرة حـيث كـانت العـقيـدة المسيـحيـة قد رسـخت منذ أواخر العـصر الرومـانى وخلال العـصر القـوطى ، يدل على ذلك وجـود العـديد من الكنائس فى قـرطبـة وإشـبيـلية وغـيـرهمـا من مـدن الجنوب ، والإشارات الكثيرة إلى المسيحيين فى المصـادر العربيـة الأندلسيـة التى تؤرخ للقرون الأولى من تاريخ الإسـلام فى شبه الجزيرة (فيمـا بين القـرنين الثامن والعاشر الميلاديين) . أمـا طليطلة فقد كـان المتوقع لأول وهـلة وجـود طائفة مـسيحية كـبيرة فيهـا ، لاسيما وأنها ظلت خـلال العصر القـوطى عـاصمـة لدولتـهم ، وأن الملك القوطى ريكاريدو Recaredo (الذى حكم بين سنتـى ٥٨٦ و ٦٠١) اعـتنـق الديانة الكاثوليكيـة بعد أن كـان أسلافـه ومعـهم الطبـقة الحـاكمـة القوطيـة يدينون ببدعـة مسيحية تدعى « الأريوسية Arrianismo » كان الشعب الإيبيـرى يكرهها وينفرمنها . غير أن الباحثين مـيكيل دى إيبالثا وزوجته مـاريا خيـسوس روبيـيرا أثبـتا فى دراسـة طريفة لهما حول الموضوع أن المسيحيين لم يكونوا كـثيـرى العدد فى طـليطلة حينمـا فتـحهـا المسـلمـون ، وأن عـددهـم اتجـه

---

(2) Angel González Palencia : Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII , volumen preliminar , Madrid , 1930 , pp. 117 - 118.

إلى التناقص التدريجى بعد الفتح وذلك لسببين : الأول أن زعماء هذه الطائفة وعلى رأسهم أساقفتهم وقساوستهم عمدوا إلى الفرار إلى الشمال ، والثانى أن كثيراً من هؤلاء المسيحيين اعتنقوا الإسلام . ومن أجل ذلك كان على نصارى طليطلة أن يبحثوا عن أساقفة يقومون برعاية شئونهم الروحية يستقدمونهم من قرطبة (٣) .

وقد انخدع بعض المؤرخين بأخبار الثورات الكثيرة التى كان الطليطليون يقومون بها فى وجه النظام الحاكم فى قرطبة خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، فظنوا أن القائمين بها من المسيحيين ، غير أن الذى ينعم النظر فى تلك الأخبار سرعان ما يتكشف له أن حملة لوائها كانوا دائما من المسلمين ، وأن السبب فى نزعاتهم التمردية لم يكن له علاقة بالدين ، وإنما كان سياسياً واقتصادياً فى المقام الأول (٤) .

المستعربون الطليطليون بعد زوال الحكم الإسلامى :

وظل الأمر كذلك على عهد الخلافة ثم عصر الطوائف ، أى خلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين حتى

---

(3) Mikel de Epalza y Maria Jesús Rubiera : Los cristianos toledanos bajo dominación musulmana.

(المسيحيون الطليطليون فى ظل الحكم الإسلامى) ، مقال منشور فى مجموعة الدراسات التى قدمت فى « ملتقى طليطلة الإسبانية العربية » ، سلمنكة :

Simposio Toledo hispanoárabe, Salamanca, 1986, pp. 130 - 131.

(٤) من أجلى الأدلة على ذلك أن زعيم ثورة الطليطليين على أيام الأمير الحكم بن هشام كان غريب بن عبد الله الثقفى (المتوفى سنة ٢٠٧/ ٨٢٣) وكان « زاهدًا معروف الفضل » ويذكر من ترجموا له « أن الذى أخرجه من قرطبة إلى طليطلة وقوعه فى أمرائها وإعلانه بتجويرهم » . انظر ترجمته فى تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، المنشور بعناية خوليان ريبيرا ، مدريد سنة ١٨٦٨ ، ص ٤٦ ؛ وجذوة المقتبس للحميدى ، تحقيق محمدين تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٢ ، ترجمة رقم ٧٥٥ ص ٣٠٧ ؛ وبغية الملتمس للضبى ، تحقيق فرانسسكوكوديرا ، مدريد ١٨٨٥ ، ترجمة رقم ١٢٨١ ، والمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٥ ، ٢/ ٢٣ ؛ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، السفر الخامس ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٥ ، ترجمة رقم ٩٩٥ ص ٥٢٢ ؛ ونفح الطيب للمقرى ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ ، ٤/ ٣٢ .

سقـوط طليطلة فى يد ألفـونسو السـادس Alfonso VI ملك قـشتـالة فى سنة ٤٧٨ (مايـو ١٠٨٥) ، فقد أعـقب فـتحه لـها تضخم كبـير مفاجىء للطائفة المسيـحية ، وذلك بسبب تزايد الهـجرة إليهـا سواء من القـادمين من مدن الجنوب فـراراً من الفتن والحروب الأهلـية أو الوافدين من المـمالك والإمارات المسـيحيـة الشمـالية ، بل نحن نعرف أن ألفونسو السادس استعان فى فتحه طليطلة بأعداد كـبيرة من الفـرسان والجنود ورجال الدين الـفرنسيين ، وعلـى رأسهم الراهب برنارد Bernard الذى أصبح كـبير أساقفة المدينة ، وهو الذى قـام - فى غيبة الملك عـن المدينة - بالاتفـاق مع المـلكة كونسـتانس Constance وكـانت فرنـسيـة أيضا على تحويل مسجد طليطلة الجامع إلى كنيسـة ، وكان ذلك نقضـاً للمواثيق التى عقـدها ألفـونسو مع مـسلمى المدينة والتى وعدهم فيها بالإبقاء على مساجدهم وعلى ممارستهم لشعائرهم [٥] .

وكـانـت طليطـلة قـد بـلغت أوج ازدهارها الحضـارى والثقافى خـلال القرن الحادى عشر الميلادى فى ظل دولة بنى ذى النون ، ووجد ألفونسـو السادس نفسه هو ورجال دولته يحكمون رعيـة كان معظمها فى البـداية من المسلمين ، ولهـذا فـإن المسيـحيين الوافدين الذين زاحـموا أولئك المسلمين فى مـدينتـهم لم يجـدوا بُدّاً من التعـامل معهم باللـغة العربيـة التى كانت آنذاك هى لغـة الحضـارة ، وكان أكثـرهم ولاسيما الذين قدموا إلى طليطلة من المدن الأندلسـيـة الأخـرى يـعـرفـون العـربيـة ويسـتخـدمـونها من قـبل . وهذا هو مـا يفسـرلنا أن الوثائق التى جرى المسيحـيون على التعامل بهـا والتى سلمت من عدوان الزمن وصلت إلينا مكتـوبة بالعربيـة ، بل ظل التعـامل بهذه اللغـة سارياً كمـا ذكرنا على امتداد ثلاثة قرون أخرى من الزمان .

---

(٥) انظر كتاب تاريخ إسبانيا لأجوادو بلييه :

Aguado Bleye : Historia de España , Madrid, 1947, I, p.602.

الوثائق المستعربية :

يبلغ عـــدد هذه الوثائق التـى اضطلع بتحقـيقها وترجـمتها إلى الإسبـانية أنخل جونثالث بالنثيا ألفاً ومـائة وخمسا وسبعين وثيقة (١١٧٥) ، وكـان معظمها مـحفوظاً فى كـاتدرائيـة المدينة ، وباقـيهـا فى دور المحفوظات أوفى مجموعات خاصة . وبين هذه الوثائق إحدى وعـشرون وثيقة عـربية إلا أنهـا مكتـوبة بحروف عـبـريّة ، وهى تشتـمل على معـاملات بين أفراد الـطائفة اليهـودية ، وقد قـام بتحقـيق هذه الوثائق أستـاذ اللغة والأدب العـبريين فى جامـعة برشلونة الأستاذ ملياس فاليكروسا Millás Vallicrosa ، ورأى بالنثيا أن يضـمها إلى الوثائق المستـعـربيـة ، إذ هى تنتـمى فى الحقيقة إلى هذه المجموعة لغة وموضوعاً . وقد اقتضت ضخـامة عدد الوثائق أن تنشر فى ثلاثة مجلدات كـبيرة ، وأضاف إليـها المحقق مـجلداً رابعاً يضم دراسة وافيـة لها مع عدد من الملاحق والفهارس (٦).

والشطر الأكبر من هذه الوثائق (٧٢٦ وثيقـة) متـعلق بالبيـوع ، أى عقـود البيع والشـراء ، وباقـيهـا يشـتـمل على وثائق الهـبـات وتحـرير العـبـيـد والمعـاوضـات والقـروض والرهـون والإجـارات والديون والمنازعـات القـضـائيـة وعـقـود الزواج والشهادات والوصايا على اختلاف أنواعها.

وأمـا تـواريخ هذه الوثائق فـأولاها مـبـايعـة ترجع إلى سنة ٨٣-١٠ أى قـبل استـيلاء ألـفونسـو السـادس على المدينة بسنتين ، والوثيقـة الأخيرة ترجع إلى سنة ١٣٩١ ، ومعنى ذلك أنها تتناول حياة أهل طليطلة على مـدى القرون الثـلاثة الأولى من حكمها المسيحى .

والملاحظ مع ذلك أن جـمـيع الوثائق تستـهل بصيغـة البسملة الإسـلامية تليـها عـبـارة « لـــه الحـمـد وحـده » أو « وبه أستعين » أو « توكلت على الله وحده » . وحينما يرد اسم شخص فى الوثيقة فكثيراً مـايتـبـعه الكـاتب بدعـاء مـثل «أدام الله بركته» أو « أعزه الله » أو « أكرمه الله » .

---

(6) Angel González Palencia : Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII , en 4 volumenes , Madrid, 1926 - 1930 .

أسماء الأعلام :

وحينما نتأمل أسماء الأعلام المسيحية الواردة فى الوثائق نلتقى بكثير من الأسماء والكنى والألقاب العربية ، إذ تكثر فيها أسماء عبد الله وعبد العزيز وعبد الملك وعبد الكريم وعبد القوى وعبد الرحمن وعبد السلام وعلى وعمر ومفرح ومقاتل وهلال وخلف وحاتم وفرج ومريم وفطومة وعائشة ، وكنى مثل أبى الحسين وأبى الربيع وأبى العاص وأبى الخير وأبى السرور وأم الهدى ، وألقاب مثل ابن الغريبة والأحنف والأديب والأزرق والشقيق والكوسج (القليل شعر اللحية) واليتيم ، ونلتقى أحياناً بألقاب طريفة مما كان شائعاً بين مسلمى الأندلس مثل الأقرع ومعه ترجمته إلى الرومانسية أى الإسبانية القديمة وهو « القَلْبُه » . (El Calvo) وكذلك الأجعد (El Crespo) والفخم الجسم وترجمته «الغُرْضُه» (El Gordo) وبصفات ينبزون بها مثل «درهم ونصف» و«العينين فى رأسه» و«بوقه دى شابله الحوّات » Boca de Sábalo ومعناه «فم الشابل» وهو نوع من السمك ، والحوات هو بائع السمك أى السمَّاك .

ونجد أحيانا مزجاً بين ألفاظ عربية ولواحق عجمية فى مثل اسم « فرجال» ، وهو فرج أضيفت إليه اللاحقة العجمية الدَّالَّة على التصغير Farach - ello ، وكذلك سمرال ، وهو صفة أسمر أضيفت إليها نفس اللاحقة Samar - ello ، وهو لفظ كثيراً مانجده فى الأزجال الأندلسية وفى خرجات الموشحات المكتوبة باللغة الدارجة . ومثل هذا أيضا إضافة اللاحقة ez – التى تدل على معنى البنوة ، فكما أن الشائع فى الإسبانية استخدام Sánchez بمعنى «ابن سانشو Sancho » و Pelaez بمعنى ابن بيلايو Pelayo فكذلك نجد اسم حبيبس Habibez أى «ابن حبيب» .

وتلحق ببعض الأسماء نِسَبُ منها فى أسماء المسيحيين البرشلونى والنربونى ، وبالنسبة لأسماء المسلمين نجد بعضها مرفوعا إلى قبيلة عربية أو بربرية أو إلى مدن أندلسية ، منها الأنصارى والفِهْرِىّ والحضرمى والعُذْرى ، واللمطى والصِّنْهَاجى (نسبة إلى قبيلتى لمطة وصنهاجة البربريتين) ، وكذلك الأُبَّذِى

والغرناطى والبسطى والإشبيلى والمرشانى ، وهذه الأخيرة نسب إلى مدن أندلسية ، بل نجد أيضا من يدعى المراكشى والغَزِّى (نسبة إلى غزة بفلسطين) .

وكانت الأسماء العربية شائعة بين المستعربين ، وكثيراً ما نرى فى الأنساب الكاملة لبعض المتعاقدين أسماء مختلطة عربية وعجمية نورد فيما يلى أمثلة لها : مرتين Martin بن أبى البقاء ، أبو الأصبغ عبد العزيز لمبذير Lampader ، بطره لازره Pedro Lázaro ابن عبد القوى ، الوزير القاضى دون بيطره Don Pedro بن عبد الرحمن بن يحيى بن حارث ، دمنقه Domingo بن عبد العزيز ابن سفيان، فليز Feliz بن يحيى بن عبد الله ، وهكذا .

خطط طليطلة ومعالمها العمرانية :

ومن أهم ما تطلعنا عليه الوثائق خطط طليطلة وعمرانها ، ذلك لأنها - ولا سيما فى عقود البيوع تنص على مواقع المنازل والأحياء والميادين والشوارع فى دقة متناهية . ومن المعروف أن المدينة تقع داخل منعطف من نهر تاجه Rio Tajo يحيط بها من ثلاث جهاتها : الشرقية والغربية والجنوبية ، فيكون النهر لها أشبه بسور غير مكتمل . وكانت مقتضيات الدفاع عنها تلزم بإقامة سور محكم البناء يحيط بها ولاسيما من جهة الشمال ، إذ كان النهر يمثل دفاعاً طبيعيا لها من بقية الجهات غير أن هذا الوضع الجغرافى جعل طليطلة تظل دائما فى موقعها التاريخى القديم لاتستطيع النمو ولا التوسع إلا فى نطاق محدود جداً ، فلم يتغير تخطيط شوارعها ولا أحيائها حتى اليوم تقريباً عما كانت عليه فى عهدها الإسلامى . وميزها هذا الوضع الفريد عن مدن أخرى كان عمرها الإسلامى أطول بكثير ، غير أن وضعها الجغرافى سمح لها بتطور كبير غيَّر الكثير من معالمها الإسلامية .

وتعد الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) - وهى مسجد طليطلة الجامع الذى حُوِّل إلى كنيسة - هى مركز عمران المدينة ، وأمامها كان يمتد حى يدعى «كُدْيَة الحطب» ثم أصبح يدعى «الكدية» Alcudia (وهو

لفظ عربى كثر استخدامه فى الأندلس وهو يعنى الرابيـة أو المرتفع) . وأهم شـوارع الكدية كان يدعى «درب شـبيب Adarve de Sebib» وكانت توجـد فيه عـدة بيوت يملكهـا ورثة سـيف الدولة Zafadola ابن هود (وهو سـليل بنى هـود الذين كـانوا ملوك سـرقـسطة على عـهـد الطوائف) ، وكان سيف الدولة حليفـاً لألفونسو السابع Alfonso VII الملقـب بالسُّلَيْطـين (حكم قشـتالة بين ١١٢٦و ١١٥٧/ ٥٢٠ - ٥٥٢ هـ .)

ويتـصل بهـذا الحـى الواقع فى وسط المدينة حى « البـيـرالمُرّ Pozo Amargo » حيث كان يوجد حمام مشهور يدعى حمَّام يعيش ، ولابد أن يكون هذا الحـمام ملكاً لأحد أفراد بنى يعيش الذين كانوا من أبرز أسر المدينة وأكـثرها جـاهاً وثروة ، وكان منهم يعيش بن محمد بن يعيش الذى كان رئيس طليطلة ومـدبر أمرها قبـل أن تنتقل السلطة فيها إلى بنى ذى النون (٧) .

ولما كان هـذا الحى هو مركز الـنشاط التجارى فى المدينة فقد كان يضم عدداً من الأسواق التى يتـجمع فيها أصـحاب المهنة الواحدة فى درب واحد على ماكـان معتاداً فى المدن الإسلامية . فقد كانت فيه أسواق العطارين والجزارين والصـرافين والحصَّارين (باعة الحُصُر) واللجَّامين (باعة لُجمُ الخيل) والبلطيـرين (وهو لفظ عـجـمى peletero أضـيفـت إليه لاحـقـة الجمـع العـربيـة ومـعناه باعـة الفـراء) والحَنَّاطين (باعـة الحِنْطة) والحدادين والفخارين .

وإلى الشـمـال الشـرقى مـن الكدية توجد«قصبة» المدينة Alcazaba أى قلعتها المحـصنة المسَّماة بالحـزام ، وهى مـدخل المدينة من جـهة الشـمال وأكـثر أجزائـها تحصـيناً ومنعة ، إذ يحـيط بها سـور متين البنيـان ، وفى طرفهـا الأعلى باب يدعى «باب القـنطرة» Puerta de Alcántara إذ يطـل على القنطـرة المؤدية إلى خـارج

---

(٧) يعيش بن محمد الأسدى كان فقـيها له ، رحلة إلى الشرق ، وتولى الأحكام ببلده ثم صار إليه تدبير الرياسة منذ أيام الفتنة التى انتهت بسقـوط خلافة بنى أمية وكانت وفاته سنة ٤١٨ (١٠٢٧) . انظر ترجمته فى الصلة لابن بشكوال ، رقم ١٥٢٠ ص ٦٥٠ .

المدينة . وفى هذا الجـزء كان يقـوم قصـر حـاكم المدينة على عـهد المسلمين ، وقـام ملوك بنى ذى النون بتجـديده ، ثم أصبح قصر ملوك قـشتالة منذ استولى المسيـحيون على المدينة ، وكـانت القـصـبـة المتـصلة بالقصر مـستقر الحامـية العسكرية . ويطل سور القـصبة على سـوق كبيـر كان يدعى «سوق الدواب» ومـازال محـتفظاً باسـمه العربى محرفاً فى صورة Zocodover ..

والجـزء الشمـالى الشـرقى من المدينة وهو المحيط بـالقصر الملكـى كان هو الحى الذى يقطنه كـبار رجـال الدولة ، فكانت منازله تتميز بالفـخامة ، أما الجزء الجنوبى فهو الذى توجـد فيه الاحياء الشـعبية ، ومنها حى الدَّباغين الذى كان بحكم طبيعة هذه المهنة ملاصقاً لضفة النهر الجنوبية .

ولما كـانت المدينـة مـحـاطة بأسـوار تقـتضـيـها ضـرورة الدفاع فـقـد تخللت الأسوار عـدة أبواب ، أهمها فى الشـمال «باب المردوم» (ويدعى الآن Valmardom) وهو يطل على رَبض (أى ضاحـية) الحق بالمدينة بعـد توسعهـا شمـالاً ثم أديرحوله سور آخر، وفتح فى هذا السور باب يدعى باب شقرا Puerta de Bisagra وهو الذى أصـبح مدخل المـدينة الرئيـسى من جهـة الشمال والشمال الغربى . وإلى الغرب من هذا البـاب آخر يدعى «باب اليـهود» لأنه كـان مطـلا على الحى اليـهـودى . وفى أقـصى الجـنوب بابان آخـران هـمـا باب الدباغين وباب الحديد .

وكان لكل حى من أحياء المدينة مرافقه الخاصة من أسـواق وحمامات ومـساجد . ومـن المـؤكـد أن كل كـنائس طليـطلة القـائمة اليـوم كـانت هى مسـاجدها بعـد نقض بنائهـا ، وإن كـانت بـقـايا البنايات القديمـة ماثلة فى عـدد منها ، بل احـتفظ بعضـها بطابعه المسـجدى سليمـاً إلى حد بعيـد مثل مسـجد باب المردوم الذى يدعى الآن كنيسة مسيح النور Cristo de la Luz ومسجد الدباغين الـذى أصـبح الآن كنيسة سان سباستيان San Sebastian..

التكوين السكانى للمدينة :

يظهـر من الوثائق أن المـسلمين الذين ظلوا فى المدينة بـعد استـيلاء ألفـونسـو السادس عليهـا كانوا يقيمـون منتشرين فى كل أنحاء طليطلة مـعايشين لمن قدم عليـها مـن المسيـحيين دون أن ينفـردوا بأحيـاء مـعينة ، على العكس من اليـهـود الذين تجـمعـوا فى حيـهم الخاص . فـإذا تأملنا تكوين سكان طليطلة بحسب ماتكشف عنه الوثـائق أمكن لـنا أن نتـــبين منهـم أربع طوائف :

الأولى المسلمون وكانوا يؤلفون غالبية السكان فى بداية الفتح المسيحى ، ولكنهم أخذوا فى التناقص بالتـدريج بسبب هجرة الكثـيرين منهم إلـى المناطق التى ظلت فى أيدى المسلمين من شبه الجزيرة ، ومع ذلك فقد بقى مـنهم عدد كبير إلى نـهاية القرن الثـالث عـشـر . ولمـا كـان المسـيحـيـون المستعـربون يستخدمـون أسماء عربيـة فقد اقـتضى التـمييـز بـينهم وبين المسلمين أن تضاف صـفة « المسلم » إلى اسـم من كان على هذا الدين ، فنجد مثلا « ابن طورينه المسلم » الذى كـان أمـين الفـخـارين سنة ١١٣٥ (٥٢٩هـ .) [٨] .

وكـان بعـض هـؤلاء يتمتع بقدر كبير مـن الجاه والـثـروة ، مـثل ورثة الأمـيـر سـيـف الدولة ابن هود الذى تـدل الوثائق على كـثـرة أمـلاكه فى مـخـتلف أحيـاء طليطلة [٩] ، ورجل يدعى « الموَّاق » يتردد ذكره فى الوثائق لكثرة ما كان يمتلكه هو ثم أبناؤه من بعـده مـن بيـوت وحـوانيت ، وكانت داره فـى أرقى أحياء المدينـة بجوار

---

(٨) انظر المجلد التمهـيدى لكتاب بالنثيا ص ٢٣٥ ، وقـد عثرنا على ترجمة لفقـيه من بلنسية يدعى أحمـد بن عبد العزيز الأنصارى ويلقب بابن (فى الأصل أبى) طورينه وكان يعيـش فى القرن الـسادس الهجـرى (الثـانى عشر الميـلادى (الذيل والتكملة لابن عبـد الملك ، السفر الأول ، ترجمـة رقم ٣١٦ - ٢٤٢/١) ونرجح أن تكون هناك صلة قرابة بين هاتين الشخصيتين .

(٩) المجلد التـمهـيدى لكتـاب بالنثيـا ص ٥٥ ، ١٥٢ والوثيقـة ١٣٠ - المجلد الأول ص ٩٣ - ٩٤ . وتاريخ هذه الوثيقة سنة ١١٧٧ (٥٧٢ - ٥٧٣ هـ.) .

الكنيسة العظمى والقصر الملكى مرجعاً لكثير من الوثائق ، بل أصبح الشارع الذى توجد فيه تلك الدار يعرف باسمه : «درب المواق» [١٠] ويظهر أن بعض من ينحدرون من ذرية هذا الرجل قد آثروا بعد ذلك فى زمن لانستطيع تحديده الهجرة إلى غرناطة [١١] . وذلك لأننا نجد فى بعض مصادرنا العربية عن تاريخ غرناطة خلال القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فقيها مشهوراً يدعى يوسف بن أبى القاسم العبدرى المواق ، ثم ابناً له كان قاضى غرناطة وكبير فقهائها والمفتين بها فى السنوات الأخيرة من حياتها الإسلامية ، وقد أدرك هذا القاضى وهو محمد بن يوسف المواق سقوط غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٧ (١٤٩٢) [١٢] .ولابد أن هذه الشخصيات البارزة من مسلمى طليطلة كانت على جانب كبير من سعة الثقافة وأنها لذلك ساهمت فى العديد من ألوان التبادل الثقافى بين المسيحيين والمسلمين ، لاسيما ونحن نعرف أن حالات الزواج المختلط بين المسلمين والمسيحيين لم تكن قليلة فى المدينة [١٣] .

والطائفة الثانية من سكان المدينة هم المسيحيون المستعربون الذين كان عددهم محدوداً فى البداية حينما استولى ألفونسو السادس على طليطلة ، ولكن سرعان ما تزايدوا فى القرون التالية حتى أصبحوا هم غالبية السكان ، ولهذا فإننا لانجد فى الوثائق النص على مسيحية المثبتين فيها ،إذ كان هذا هو الشائع المتوقع . على أن

---

(١٠) المجلد التمهيدى ص ١٥٢ والوثائق أرقام ١٦٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٤١٧ ، ٥٨١ ، ٧٣٨ ، ٧٥١ .

(١١) آخر الوثائق التى تذكر اسم «المواق» هى رقم ٧٥١ المؤرخة فى سبتمبر ١٢١٣ (٦١٠هـ .) حيث يرد ذكر « دار كانت للمواق» . (المجلد الثالث) ص ٢٤- ٢٥ .

(١٢) انظر ترجمة المواق هذا فى نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتى ، على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ، القاهرة ١٣٥٠ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ؛ والضوء اللامع للسخاوى ٩٨/١٠ ؛ ودرة الحجال لابن القاضى ١٤١/٢ .

(١٣) تشهد بذلك وثائق عديدة . انظر مثلا الوثائق ٩٤٥ و ٢٤٢ و٩٣٥ ، وانظر المجلد التمهيدى ص ١٥٣ .

هؤلاء المسيحيين لم يكونوا مجتمعاً واحداً متجانساً ، فقد كان من بينهم أولا المستعربون الذين كانوا مستقرين فى المدينة فى ظل الحكم الإسلامى ، ثم المسيحيون الغزاة القادمون من الشمال ، وكان هؤلاء أكثر خشونة وأدنى فى المستوى الحضارى من الطائفة السابقة ، وكانت معرفتهم بالعربية أقل ، فكان الموثق يحتاج إلى أن يترجم لهم بلغتهم ما يكتبه من وثائق حتى يطمئن إلى فهمهم لها . ويلحق بهؤلاء من شاركوا فى غزو المدينة من الإفرنج (الفرنسيين) الذين عاشوا فى حى خاص بهم (ربض الإفرنج) وكانت هذه الطائفة هى أقل طوائف السكان معرفة بالعربية . وتكشف عن هوية الأفراد المنتمين إلى هؤلاء النسب الملحقة بأسمائهم والتى تدل أيضا على المواضع التى قدموا منها . فنحن نجد فى أسمائهم : غليام بيطايين Guillaume Pitevin (نسبة إلى بواتييه) ، وأرنالد طلشانArnaldo (Arnault) Tolosano أى المنسوب إلى طلوشة (تولوز Toulouse) (١٤).

والطائفة الأخيرة هم اليهود الذين كانوا يساكنون المسلمين قبل الفتح المسيحى ، وكان هؤلاء متشبعين بالثقافة العربية ، ولهذا فقد كتبوا وثائقهم بالعربية وإن كانت بحروف عبرية . وكان بعض هؤلاء اليهود من أصحاب الجاه العريض فى المدينة . إذ نجد أسماءهم مشفوعة بأدعية تشريفية مثل «دام عزه » (١٥) ، بل نرى أحدهم وهو أبو عمر بن شوشان - وذكره يتردد فى وثائق كثيرة - يوصف بأنه «الوزير الأكمل المشرف الأعز الأفضل» (١٦) وكان لهم معبد كبير أو «شنوغة» Sinagoga مقامة فى حيهم الخاص بغربى المدينة كانت تدعى فى الوثائق باسم ألماليكيم Almaliquim وكان قد اضطلع ببنائها الحاخام داود بن سليمان بن أبى درهم قبل سنة ١٢٧١ (٦٧٠هـ) (١٧) ويتضح من الوثائق أن كثيراً من هؤلاء

---

(١٤) انظر على الترتيب الوثيقتين رقم ٥٥٨ - المجلد الثانى ص ١٤٩ ؛ ورقم ٣٦٦ ، المجلد الأول ص ٣٠٦ .

(١٥) الوثيقة رقم ٣٣١ ، المجلد الأول ص ٢٧٢ .

(١٦) الوثائق أرقام ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤

(١٧) الوثيقة رقم ١١٤٤ ، المجلد الثالث ص ٥٨٤ .

اليـهود كـانوا يمتـهنون العديد من الحـرف والصناعات ، فـمنهم خيـاطون وحدادون وفَرَّانون وغير ذلك . ولكن الغريب - كما يذكر جـونثالث بالنثيـا - هو أننـا لا نجـد بينهم مرابين أو مقرضين للنقود وهى المهن التى تشيع نسبتها إليهم(١٨).

الوظائف والمهن :

نلاحظ أن كثـيراً من أسـماء الوظائف والمناصـب والمهن تحـتـفظ فى الـوثائق بأسمائها العربية نذكر منها :

- **الحاكم ، القاضى** : حاكم المدينة أو البلـدة أو القـرية ، ويقابله فى الإسـبانـية لفظ Alcalde (المأخـوذ من لفظ القـاضى العربى) .

- **الوزيـر** : وهو لقب تشـريفى نجـده فى الوثائق مضافاً إلى كثير من المناصب أو إلى أشخاص لايتـولون وظيفة رسمـية ، وإنما هو على سبيل التشريف ، وهو يرد بصورة alguacil حـينما يتـرجم إلى العجـميـة .

- **المستناب** : وهو نائب الحـاكم ، وهى وظيـفة كـثيـراً مـانراها متـوارثة فى نفس الأسرة .

- **صاحب الـشرطة** : ومهمته الحفاظ على الأمن فى المدينة .

- **الكاتب** : وهو يعنى الموثق الذى يتـولى تحرير الوثائق .

- **الوكيل** : وهو الذى ينوب عن المتقاضين فى الدفاع عن مـصالحم وبيان حقوقهم . وهى وظيـفة قـديمة تميز بهـا نظام القضـاء الإسـلامى فى الأندلـس ، وهى تقـابل المحامى فى نظمنا الحاضـرة ، ونجده يسمى فى بعض الوثائق « الثقة » .

- **الخصيم** : وهو محـامى الدولة ، ويشبه فى نظامنـا الحالى المـدعى العـام ، ويظهر أن هذه مـهنة مـستـحدثـة فى طليطلة فى عـهدها المسـيـحى ، إذ لانراها فى النظام القضائى الأندلسى .

- **المشرف** : وهو لفظ انتـقل إلى الإسبانية فى صورة almojarife ووظيفته منقولة عن

---

(١٨) انظر المجلد التمهيدى ص ١٤٣

تلك التى كانت قائمة فى الأندلس الإسلامية ،ويسند إلى متوليها الإشراف على الجبايات . وكثيراً مايضاف إلى القائم بها لقب « الوزير » التشريفى .

- **المحتسب** : وكان يدعى أيضا فى الأندلس الإسلامية صاحب السوق ، وقد ظلت وظيفة المحتسب فى طليطلة المسيحية كما كانت فى عصرها الإسلامى ، وانتقل اللفظ إلى الإسبانية فى صورة almotacén ومهمة المحتسب هى مراقبة الأسواق والحرص على صحة الموازين والمكاييل .

- **الأمين** : ويطلق أحيانا على المحتسب .

- **الناظر** : ويدعى أيضا « الرائى » وهو الذى يعهد إليه بالإشراف المالى على مؤسسة ما ، وكثيراً ما نجده فى الوثائق متولياً لتدبير أملاك كنيسة أودير ، كما نرى فى مثل هذه العبارة « الذى له النظر فى جميع ماللإفراييين » وهذا اللفظ الأخير هو جمع إفرايل (تعريب fraile أى راهب) .وأحيانايطلق على متولى هذه الوظيفة الاسم العجمى « ميردوم » (تعريب mayordomo) ، كذلك يطلق عليه أحياناً لقب « الخازن » ، وهو مأخوذ من النظام الإسلامى القديم فى الأندلس ، وكان فى البداية يطلق على الوزير المكلف بشئون المال ، ثم أصبح يستخدم للدلالة على المدير أو المفتش المالى فى مؤسسة ما ، ومن الطريف أن نذكر أن اسم هذه الوظيفة قد ترجم فى العصور التالية ترجمة حرفية إلى الإسبانية ، فأصبح لقب veedor (اسم الفاعل من ver أى نظر) .

- **المتصرفة** : وهى مديرة منزل أو دير .

- **القائد** : وهى رتبة عسكرية رفيعة ، وكان الطبيعى أن يكون من يلونها من المسيحيين المقربين إلى الملك ، غير أننا نرى أحد من تصرفوا فى هذه الخطة يحمل اسماً عربياً هو «شبيب بن عبد الرحمن » الذى يتردد ذكره فى الوثائق ، وكان اسمه يطلق على درب فى الكدية فى أرقى أحياء المدينة . ومن الطريف أن نجد وثيقة وصية أوصى بها أحد أعيان الإفرنج وهو أرنالدسقين Arnald Çequin·ويقول فى

آخرها : « وجعل تنفيـذ وصيته إلى القائد دون شـيب بن عبـد الرحمن » واثنين آخرين « لما علم من فضلهم وديانتهم » (١٩) .

– الـدلـيـل : وهى كـذلك وظـيـفـة عـسكرية رفيـعة ، إذ هو الذى يوكل إليـه توجيه حركة الجيش ، وقد انتقل اللفظ مع الوظيـفـة نفـسـهـا إلى النظام العـسكرى الإسبانى فى صورة adalid . وكان معظم من تولوا هذا المنصب من المسيحيين ، غير أننا نجـد أيضـا عـدداً ممن كـانوا يتـولونه يحملون أسماء عربية ، منهم من يدعى بيطره مورُ Pedro Moro (أى العـربى أو المسلم) وآخر يدعى رذريق بن أبى زيد (٢٠) .

– الرائس : وظيفة عـسكرية بحرية ، انتـقلـت إلى إسبـانيـا المسيـحـية بلفظهـا Arráez ، ويقابـل متولـيها قائد الأسطول أو القـــبـطان ، ويكاد كل مـن ولوا هذه الوظيفة يكونون ممن يحملون أسـماء عربية أو مـختلـطـة : عبـد الملك ، جـوان بـن خلف ، حـــسن بن فرج ، فـرج بن إسحـاق .

أمـا المهن والحرف فنـجد مـعظم من يقومون بها يلقبون بصفات عربية ، ومعظم هذه الصفـات انتقلت إلى الإسبانيـة نذكر منهـــا : العـــريف alarife وهـو رئيـس المشتـغلين بحرفة مـعينة ؛ البناء albañil؛ الفـخـــار : صـانـع الأوانـى الفـــخـارية alfarero ؛ القرَّاق : صـانع الأقراق (أى الأحذية الفلينيـة) ، الرامى أو القواس أى صـانع القِـسـىّ ، الحـمَّـار أى المكارى ، الحمَّامىّ صاحب الحمـام أو العـامل فـيه ، الحجَّـــام (بالإسبانـية alfageme) وهـو الحـلاق بلغـتنـا العـصـريـة ، الطـرَّاز أى المطرز ، الرقَّامة أى المطرزة التى تقوم برقم الثـياب ، النحَّـاس أو الصـفّار أى صـانع الأوانـى النحـاسيـة أو بائعهـا ، الصـرَّاف أو الصيرفى ، والحـجار أو القطاع ويدعى أيضا قـاطع الحجر ، الجـيَّار الذى يبيِّض بالجـيـر ، الـكمَّـاد الـذى يقـوم بـتلمـيع الأوانى ، النجَّـار بدلالتـهـا المعـروفـة ، الشعَّار أى بائع الشعـير ، الشمَّاع أى بائع

---

(١٩) الوثيقة رقم ١٠١٣ المؤرخة فى مايو ١١٥٦ (ربيع الثانى ٥٥١ هـ .) ، المجلد الثالث ص ٣٧٩ .

(٢٠) المجلد التمهيدى ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

الشمع ، الجرَّاح بدلالتها الحالية ، القلَّاس أى صانع القلانس أو بائعها ، الدبَّاغ بدلالتها الحالية ، الحصَّار أى صانع الحصر أو بائعها ، الدَّقاق بائع الدقيق ، الفرَّان صاحب الفرن ، الجنَّان أى البستانى ، الماشطة بدلالتها الحالية ، الحوات أى بائع الحوت وهو اللفظ الأندلسى الذى يطلق على السمَّاك ، القزَّاز بائع القزّ أى الحرير ، السراج صانع السروج أو بائعها .

لغة الوثائق :

الوثائق كلها مكتوبة بالعربية فقط ، فيما عدا بعض الوثائق التى ترجع إلى تاريخ متأخر ، إذ أرفقت بنسخها العربية ترجمات باللاتينية أو الرومانسية (عجمية أهل الأندلس أى اللاتينية الدارجة التى أصبحت هى الإسبانية) . وتتميز الوثائق المبكرة التى كتبت فى زمن قريب من فتح المسيحيين للمدينة بأنها سليمة اللغة فصيحة التعبير إلى حد بعيد . وذلك لأن صيغ الوثائق كانت منقولة عن الكتب العربية المؤلفة فى هذا المجال . ومن الطريف أن نذكر أن تحرير الوثائق كان من أهم ما عنى به الفقهاء الأندلسيون ، وكان من أحسن الكتب التى ألفت فى هذا المجال كتاب لفقيه طليطلى مشهور هو أبو جعفر أحمد ابن مغيث الصدفى يقول ابن بشكوال فى ترجمته : « من جلة علمائها (علماء طليطلة) عالم بالحديث وعلله وبالفرائض (أى المواريث) والحساب واللغة والإعراب والتفسير وعقد الشروط (أى كتابة الوثائق) وله فيها كتاب حسن سماه « المقنع » . توفى فى صفر سنة ٤٥٩ (يناير ١٠٦٧) ومولده فى ٤٠٦ (١٠١٥) » (٢١).

ومن حسن الحظ أن مخطوطة هذا الكتاب قد سلمت من غوائل الزمن فهى محفوظة فى مكتبة المجمع التاريخى الملكى بمدريد برقم ٤٤ . وقد أتاح ذلك الفرصة لناشر وثائق المستعربين أنخل جونثالث

---

(٢١) الصلة لابن بشكوال ، الترجمة رقم ١٢٤ ص ٦٣ .

بالنثيا أن يقارن بين الصيغ المستعملة فى الوثائق وبين تلك الواردة فى كتاب ابن مغيث فرأى تطابقاً كاملاً يصل إلى حد النقل الحرفى بين هذه وتلك ، مما يدل على أن كتاب الوثائق المستعربية اتخذوا من كتاب ابن مغيث مرجعًا لهم ومن الصيغ التى أوردها نماذج يحتذونها ، وأورد أمثلة لذلك فى وثائق البيوع ، وهو ما يوجد أيضا فى كثير من الوثائق الأخرى الخاصة بالإجارات والحوالات والهبات والوصايا والمعاوضات وغيرها . ومما يلفت النظر أنه كانت توجد فى إسبانيا المسيحية وثائق قوطية قديمة كما كانت هناك وثائق حررت فى الممالك والإمارات المسيحية الشمالية ، ولكن موثقى طليطلة أعرضوا عن كل هذه المادة واستخدموا كتب الوثائق العربية التى ألفها المسلمون ، وكان السبب فى ذلك هو تميز هذه الوثائق بدقتها البالغة وتحديدها الواضح وهما سمتان تخلو منهما وثائق إمارات الشمال [٢٢] . ولم يكن ذلك غريباً فابن مغيث فقيه طليطلى توفى قبل فتح المسيحيين للمدينة بأقل من عشرين سنة ، وكان كتابه ذائع الصيت فى الأندلس ، فرأى فيه موثقو طليطلة ضالتهم ، ولم يحل اختلاف الدين بينهم وبين الاعتماد الكامل عليه فى تحرير وثائقهم .

ومن الواضح أن العربية التى كتبت بها الوثائق كانت مفهومة ولاسيما بين الأجيال الأولى للمستعربين المسيحيين ، ولكن هذه المعرفة تناقصت بمضى الزمن ، فكان على الموثق أن يشرح للمتعاقدين ماكتبه بالعربية ويفهمهم إياه . ونضرب على ذلك الأمثلة التالية :

---

(٢٢) انظر المجلد التمهيدى ص ٣٦٠ - ٣٦١ . وقد أورد بالنثيا فى ص ٣٦١ صيغة شراء منزل واردة فى كتاب المقنع لابن مغيث (الورقة ٣٦) ناصاً على أنها نفس الصيغة التى تستخدمها المجموعة فى الحالات المماثلة .

- فى وثيقة مبايعة رقم ١٠٩٨ :

« . . .بعد أن قرئ الكتاب على المبتاعين المذكورين بمحضر الشهود وفسرت معانيه إليهم بلسان فهموه فاعترفوا بذلك » (بتاريخ ١١٦٩/ ٥٦٤ هـ .) (٢٣) .

- فى وثيقة مبايعة رقم ١١٠٠ :

« . . . وبعد أن قرىء عليهم وفسرت معانيه إليهم بلسان فهموه فاعترفوا بفهمه» (بتاريخ ١١٩٣/ ٥٨٩هـ .) (٢٤) .

- فى وثيقة اتفاق معقود بين رجل إفرنجى وزوجته وابنه ، رقم ٩٨١ :

« وبعد أن فهم ذلك عليهم بلفظ عجمى واعترفوا بفهمه كله » (بتاريخ ١٢٠٦/ ٦٠٢) (٢٥) .

- فى وثيقة مبايعة رقم ١١٠٤ :

« وفسر عليهم نصه بلفظ أعجمى فهموه واعترفوا به » (بتاريخ ١٢١٦/ ٦١٢ هـ .) (٢٦) .

- فى وثيقة اتفاق بين رئيسة دير للراهبات وإحدى الأسر ، رقم ٩٨٤ :

« بعد أن قرئ عليها هذا الكتاب المذكور أعلاه حرفا بحرف بالعربى والعجمى وفهم عليها معانيه كلها » (بتاريخ ١٢١٧/ ٦١٣ هـ .) (٢٧) .

وتدلنا هذه العبارات على أنه كان من واجبات الموثقين الذين كانوا يحررون هذه الوثائق بالعربية أن يفسروا ماتضمنته الوثائق والعقود للمتعاقدين وأن يترجموها لهم باللغة العجمية التى يفهمونها ، وقد يستعينون على ذلك بمن لهم القدرة عليه . ومعنى ذلك أنه وجدت فى طليطلة طائفة لابد أن تكون كبيرة ممن يجيدون العربية واللاتينية أو الدارجة . ولسنا نشك فى أن هذه المعرفة اللغوية المزدوجة تجاوزت ميدان الوثائق والعقود إلى مجالات معرفية أخرى ، إذ إن ذلك يتفق مع ما أثبتته دراسات أخرى من تحول طليطلة منذ

---

(٢٣) المجلد الثالث ٣/ ٥١٧ .

(٢٤) المجلد الثالث ٣/ ٥٢٠ .

(٢٥) المجلد الثالث ٣/ ٣٢٢ .

(٢٦) المجلد الثالث ٣/ ٥٢٣ .

(٢٧) المجلد الثالث ٣/ ٣٢٥ .

استيلاء الفونسو السادس عليها فى سنة ١٠٨٥ (٤٧٨ هـ .) إلى مركز انتشرت منه الثقافة العربية إلى باقى أنحاء إسبانيا المسيحية ، بل وإلى القارة الأوربية بأسرها . فقد ازدهرت فيها وبصفة خاصة خلال القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) حركة ترجمة واسعة النطاق نقلت كثيراً من كتب العلوم والفلسفة العربية إلى اللاتينية ، وكان يرعى هذه الحركة المعروفة باسم « مدرسة مترجمى طليطلة « Colegio de traductores toledanos الأسقف رايموندو مرتين Raimundo Martin الذى كان كبير مستشارى ملك قشتالة الفونسو السابع (الذى حكم بين سنتى ١١٢٦ و١١٥٧/ ٥٢٠ - ٥٥٢ هـ .) . وقد اضطلع اليهود الذين نرى من الوثائق أنهم كانوا كثيرين فى طليطلة بدور كبير فى أعمال الترجمة بحكم إجادتهم للعربية [٢٨] .

ونعود إلى لغة الوثائق ، فنلاحظ أنه بمرور الزمن قد دخلها الفساد بالتدريج فأصبحت ولاسيما فى الوثائق المتأخرة تكتب بلغة قريبة من العامية الأندلسية الدارجة . وهذه ظاهرة على جانب كبير من الأهمية ، لأنه من خلال لغة الوثائق يمكن لنا أن نرصد بعض ملامح اللهجة الأندلسية ، وبخاصة فى منطقة وسط شبه الجزيرة .

- ومنها على سبيل المثال النبر الشديد على مقطع الكلمة الأخير أو السابق للأخير ، مما يحيل الكسرة مثلا إلى ياء أو الضمة إلى واو . فنحن نجد مثلا « أومها » بدلاً من « أمها » ، و «مؤمين » مكان « مؤمن » ، وداخيل (داخل) ، والبوحيرة (البحيرة) ، وتسكون (تسكن) ، وشاهيد (شاهد) ، وهوم (هم) ، والجيهة (الجهة) والهيبة (الهبة) ، ويذكوروا (يذكروا) . وهذا ظاهرة عامة

---

(٢٨) حول مدرسة مترجمى طليطلة انظر ماكتبه جونثالث بالنثيا فى « تاريخ الفكر الأندلسى » (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص٥٣٦ - ٥٤٢ .

فى كثير من اللهجـات الأندلسية ، وعليها شواهد كثـيرة فى ديوان ابن قزمـان وغيره من النصوص المكتوبة بالعامية ، بل نجد لها امتـــداداً فى كثيـر من اللهـجات المغربـية الحديثة .

- ونجـــد فى الوثائق عكـس الظاهرة السـابقـة ، أعنـــى حـذف بعض حـروف اللين : «الدر» (الدار) ، رحها (روحها) .

- الخلط بين بعض الأصوات المتـقاربة المخارج : فمـثلا بين التاء والطـاء : فطقـوا (فتـقوا) ، قتع (قـاطع) ، وبين السين والصاد : صفلى (سفلى) .

- الاستعاضـة عن الإضافة باسم يدل عليها ، مثـل مـتـاع أو متع ، إذ يـرد مثلا « البيت متاع فلان » أى بيت فلان ، وهذه ظاهرة نجـدها بكثرة فـى نصوص عـاميـة أخـرى أندلسيـة ، ولفظ متـاع الدال على المِلْك هو الذى تحرف فـى العاميـة المصرية إلى «بتاع » بل نجد الوثائق تسـتخدم أحيانا حرف الجر العجمى الدال على ضمير الملك وهو دى ، وذى ،ودِ (de) .

- استخدام السـابقة « حرف الكاف » المتصل بالفعل المضارع للدلالة على الحاضر أو المتصـل أو المتكـرر الحـدوث فى مثـل « حيث كـتدبح الكباش » أى حـيث تجرى العادة بذبح الكبـاش ، وهى صيغـة كانت شـائعة فى عـامـية الأندلس ، ومـازالت مستخدمة فى العامية المغربية .

- وأغرب من ذلك إقحام نون الوقاية بين الاسم وضميـر المتكلم مثل « أمامنى » فى موضع « أمامى » . ويبدو أن هذه من ظـواهـر اصطـنـاع المبالـغـة فى الـتحـذلـق أو التفاصح .

والحقيقة أن الظواهر اللغوية التى يمكن أن تستخلص من الوثائق كثيرة جدا ، وهى تحتـاج إلى دراسة مفـصلة يمكن أن تكشف لنا عن كثير من خصائص اللهجة الأندلسية وتطورها على مدى نحـو ثلاثة قرون (٢٩)

★ ★ ★

(٢٩) جمع الباحث الباروجاليس دى فـونتيس بعض الملاحظات الطريفة حول لغة مستعـربى طليطلة الدارجة فى مقال قيم منشور فى مجموعة الدراسات التى قدمت فى « ملتقى طليطلة الإسبانية العربية » وهى التى أشرنا إليها من قبل :

Alvaro Galmés de Fuentes : La lengua de los mozárabes de Toledo, en Simposio Toledo hispanoárabe, Salamanca, 1986, pp. 135 -151.

مشهد إنسانى مؤثر فى نموذج للوثائق :

وبعد ، فـإنه على الرغم من الانطباع الذى توحى به هذه الوثائق لأول وهلة من جفـاف أو رتابة فإن الفـوائد التى يمكن أن تستخلص منها بالغة الغزارة والقيمة ، وقد أشرنا إلى أهمـيتها اللغـوية ، ولكنها إلى جوار ذلك تلقى أضـواءً كاشفة على حـياة تلك المدينة التى كانت أشبه ببرج بابل فيما كانت تموج به من أجناس ولغـات وثقافات وديانات مختلفة تعايشت فى جو من الوئام على مدى ثـلاثة قرون بعد أن زالت عـنها دولة الإسلام . وما عرضناه فى الصفحات السـابقة ليس إلا لمحة سريعة تصور لنا ذلك الجو من التعايش .

ونختـتم هذه الدراسة بمشـهد إنسـانى مـؤثر تصـوره لنـا إحـدى هذه الوثائق إذ تنقـل لنـا حـواراً دار بـين دائـن وامـرأة مـدينة فى فبـراير سنة ١١٩٧ (ربيع الأول ٥٩٣ هـ .) . وسنورد النص كـما جـاء فى هذه الوثيقة (٣٠) .

« الذى يشهد بـه دون سبريان بن دون عـبـد الملك الشـعَّـار ودون لب بن بيطره مرتين ، وذلك أنهما حضـرا فى شهر يناير الناجز الأقـرب لتاريخ هذا الكتـاب بمقربة من البير المر بداخل مدينـة طليطلة حرسها الله ، ورأيا لشنجه يوانش مقبلة من ناحية الحمام ، ورأيا وسمعـا لدمنقه . . . تلبيبه قائلاً لها :

– شنجه يوانش ، أنصفى من السـبعة مثاقيل والأربعة الدا التى لى قبلك ، فإنى إليها محتاج ! . . .

فراجعته دونة شنجه المذكورة قائلة :

---

(٣٠) الوثيقة رقم ١٠٠١ ، المجلد الثالث ص ٣٥٣ – ٣٥٤ .

- اعلم بأنى ننصفك منها معجَّلاً حرسك الله !

وقال لها دون دمنقه المذكور :

- ومتى يكون ذلك ؟ فإنك قد محجتى عن ذلك كثيرًا !

فقالت له :

- فى آخر هذه الشهر ننصفك .

(الذى كان شهر ينير المذكور) .

فقال لها :

- وإن لم تنصفى ؟

قالت له شانجة يوانش :

- هذا مانتى بيدك . خذه وبعه ، وانتصف من السبعة مثاقيل وقطاعك .

فقال لها :

- مَلّكيهِ لى .

فجرت حينئذ مانت إشكرلاته وأعطته له بيدها . فقال لها دون دمنقه المذكور :

- البسى مانتك من يدى حتى إلى المدة . فإنك إن لم تنصفى نخذه منك ونبعه كالذى أشرطت على نفسك .

فقالت له :

- نعم ، دون حكم حاكم . خذه وبعه وانتصف من جميع مالك قبلى دون قلونية يلزمك عن ذلك . وإن لزمت فى ذلك قلونية فلايلزمك شىء منها بل يلزم ذلك لى.

فأشهدهما بذلك دون دمنقه المذكور عليها - أعنى للشاهدين المشهورين .

هذا ما شهداه به ، وقيدت شهدتهما . . . وذلك فى شهر فبرير سنة خمس وثلاثين وألف للصفر .

لب بن ميقايل السقلى ، دمنقه بن بيطره شاهد ، وبيطره بن يوان بن طوما ابن يحيى بن بلاى .

ودون دمنقه رمان يشهد بمثل شهادة الشاهدين المذكورين »

ملاحظات :

عربية الوثيقة كما نرى تشتمل على عدد من الظواهر اللغوية التى تكشف عن

التـأثر بلغـة الكلام التى كـانت خليطا من العامية الأنـدلسية والرومانسية أى عـجمية أهل الأندلس . ونسجل فيما يلى أهم هذه الظواهر :

- اسـتخـدام حـرف اللام مع الفـعل المتعدى بـنفسه : « رأيا وسمعـا لدمنقه ، رأيا لشنجـه ، مـا يلـزم ذلك لى ، أعنى للشاهدين » .

- اسـتخـدام الفـعل المسند لجـماعـة المتكلمين مع ضمير المتكلم المفرد « : بأنى ننصـفـك مـنهـا ، فى آخـر هذا الشـهـر ننصـفـك ، نخذه منك ونبـيعـه » . وهذه ظاهرة شائعة فى العامـية الأندلسية ، وهى مـوجودة أيضـا فى لغـة الكلام لدى أهل الإسكندرية حتى اليوم .

- اسـتـخدام حرفى جـر يؤديان نفس المعنى : « حتى إلى المدة » .

- اسـتـخدام الثلاثى المـزيد فى موضع الثلاثـى المجرد : « كالذى أشـرطت على نفسك بدلا من « شرطت » .

- تعـدية الفعـل اللازم : « مـاشهداه به » فالمقصود « شهدا » .

- إلحاق اليـاء بتـاء الـمخـاطبـة : « مَحَجْـتِى » . ولايعد هذا من الخطأ ، إذ نجد عليه شواهد من النصوص الفصيحة ، ولكنه استعمال شـائع فى معظم اللهجات العربيـة الدارجة فى عصرنا الحـاضر وذلك للتـمييـز بين ضـميـرى الخطاب للمذكـر والمؤنث .

- مـن الناحـيـة الإمـلائيـة نجـد فى الوثيـقـة إهمـالاً لـكتـابة بعض الحـروف المهـمـوزة أو حـروف اللين : نـخـذه (نأخذه) ، وشهدتهما (وشهادتهما) ، نبعه (نبيـعه) والاسم الأعجمى شـانجه Sancha يكتب مرة بألف ومرة بدونها .

- استعمال اختـصارات شائعة فى لغة الكـلام الأندلسية ، فنحن نجد هذه العبارة « أنصفىّ مـن السـبعة مثاقـيل والأربعة الدا » ، فلفظ الدا فى المصطـلح الأندلسى هو اخـتصـار للفظ الدراهم ، والدرهم وحـدة نقـدية هى جـزء من المثقال وهو عملة ذهبية .

- استعمال ألفاظ أندلسية شائعة مثل « قطاع » ، وهو جمع قطعة ، والمقصود بذلك قطع النقد الصغيرة أى الدراهم الأربعة .

- أسماء الشهور المستخدمة فى النص : يناير وفبراير هى التى شاع استعمالها فى الأندلس ، فقد كان المسلمون يستخدمون التقويمين الهجرى والميلادى بنفس الصورة التى نراها فى الوثيقة ، وهى نفسها الشائعة فى المغرب العربى اليوم .

- استخدام ألفاظ عجمية ، أولها لقب « دون » (Don) ، و« دونة » (Doña) وهما يعنيان السيد والسيدة ، وكذلك لفظ « مانت » فى قول المرأة « هذا مانتى بيدك » وقول الدائن : « البسى مانتك » ، فهذا اللفظ هو تعريب manto الإسبانى «قلونية» وهو تعريب Caloña ويعنى ضريبة كانت تفرض على المبيعات ، وقد انقرض هذا اللفظ فلم يعد مستعملا . ثم يأتى لفظ « إشكرلاته » صفة للمعطف ، وهو تعريب اللفظ العجمى escarlata ويعنى الأحمر القرمزى . وقد استخدم الأندلسيون المسلمون هذا اللفظ للدلالة على لباس من الصوف الأحمر القرمزى . يقول المقرى نقلا عن ابن سعيد فى حديثه عن زى الأندلسيين : « وكثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأبناؤهم بزى النصارى المجاورين لهم ، فسلاحهم كسلاحهم ، وأقبيتهم من الإشكرلاط وغيره كأقبيتهم »(٣١) .

وعلى الرغم من كون لغة الوثيقة أقرب إلى العامية فإنه مما يفاجئنا فيها استخدام بعض الألفاظ الممعنة فى الفصاحة إلى درجة الإغراب ، نرى ذلك فى هذه العبارة « وسمعا لدمنقه . . . تلبيبه » ، فالتلبيب استخدام مجازى يقصد به المطالبة ويعنى المعطف . ونرى بعد ذلك لفظ الملحة الشديدة ، وهو مصدر « لبب » ،

---

(٣١) نفح الطيب ، بيروت ١٩٦٨ - ١/ ٢٢٣ ؛ وانظر تكملة المعاجم العربية لدوزى ترجمة سليم النعيمى ، بغداد ١٩٧٦ - ١/ ١٤٥ .

يقـال لبت الرجل إذا جـمعت ثيـابه عند صـدره ونـحـره ، ومنـه التـعبـير الشائـع « أخذت بتـلابيبـه » أى ضيقت عـليه فى المطالبـة واسـتبلغت فـى الإلحاح عليـه .

كذلك نجد هذه العبارة « فإنك قد محجتى عن ذلك كثيراً » ، وأظن أن الكاتب قصد « ماحجت » ، والمماحـجة هى المماطلة ، وهو لفظ لايكـاد يسـتـعـمل الآن ، ولو استعمل لبدا غريباً غير مفهوم .

ونعمـد بعد هذا التحلـيل اللغوى إلى شرح موضوع الوثيقة :

نحن الآن أمام واقعـة يسجل عدد من الرجال شهادتهم عليها ، وهم.

- سبريان بن عبـد الملك الشعَّار (أى بائع الشعير). . . Cebrian

- لب بن بيطره مرتين

Lope b. Pedro Martin

- لب بن مـيقـايل السقلى (كـذا ، والمقصود الصقلى) Lope b. Miguel

- بيطره بن يوان بن طوما بن يحيى ابن بلاى

Pedro b. Juan b.

Tomas b. Yahya b. Pelayo

- دمنقه رومان Domingo Román

والمشـهـد هو الموقف الذى جـمع بين رجل دائن هو السـيـد دمنقه . . . وامـرأة مدينة هى شـانجه يوانش Sancha Juanes وكان لقاؤهما بمقربة من موضع مشهور فى طليطلة هو البير المر (Pozo Amargo) ، وذلك فى شهر يناير سنة ١١٩٧ . وكانت المرأة مقبلة من ناحيـة الحمـام - ولابـد أنـه حـمام يـعيـش المشهـور والكـائن فـى حـى « البيرالـمر » ، فـتوجه إليها الرجل مطالبًا بأداء دينه ،وهو سبعة مثاقيل وأربعة دراهم . وتعـده السيـدة شانجـة بأن تؤدى إليـه دينه فى آخر الـشهـر ، ولكن الرجل يتشكك فى مدى وفائها بوعودها ، فيسألها كيف يكون الأمر لو أخلفت . فما كان من المرأة إلا أن عـرضت عليـه المعطف الذى كانت تلبسه لكى يبيـعه ويتقاضى ماله من

ثمنـــه ، إلا أن الدائن لا يشـق فى كـــلام شانجـه ، ويظهر أن تجـاربه السابقـة معـها علمـته سوء الظن بـها ، فطلب إليـها أن تدلل على جِـدِّها بأن تملكه المعطف . ولم تتردد المرأة ، فـإذا بها تخلع عنها معطفـها الصوفى الأحمر وتدفـعه إليه . وهنا تدرك الرجل الشـهامـة ويغلبه التـأثر والحيـاء ، لاسيما إذا ذكرنا أن المشهد فى شهر يناير ، والـبـرد فى شـتاء طليطلـــة قارس شـديد الوطأة . ولهذا يرد الرجل عليها معطفها . غير أنه – وهو الحريص على استرجاع حقه يناشدها أن ترد الدين فى آخـر الشهر كـما وعـدت ، وإلا لم ير بداً من بـيع المعطف بحسب ما شرطت على نفسها .

والذى نعرفه من نهاية الوثيقة المؤرخة بعد هذا المشـهد بشهـر أن المرأة عادت إلى المماطلـة ، فلم تؤد الدين فى نهاية شـهر يناير كما وعدت ، وواصل الرجل مطالبته إلى مدى لانعـرف نهايتـه ، وكأن السـيدة الطليطلية صـاحبة كعب بن زهيـرالتى قال فيها بيته الخالد :

صارت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيده إلا الأباطيل

محمـود على مكـى

عضـو المجمـع

★★★